الاخ (فرا) غريفون وجبل لبنان

في القرن الخامس عشر

(للأب هنري لامنس اليسوعي)

ان اسم الرهبانية الفرنسيسكانية لا ينفصل عن ذكر المساعي المبذولة في النصف الاخير من القرون المتوسطة لاجل احياء الكثلكة في الشرق. يشهد بفضل ابناء القديس فرنسيس آثار همتهم الناهضة وغيرتهم المتقدة وتفانيهم المجيد. ففي القرن الخامس عشر لا تكاد تخلو منهم بلدٌ من بلاد الشرق فكنت تراهم في لبنان وقرمان وطرابزون وارمينيا والعجم وسفح القوقاس وساحل بحر قزوين يبشرون ويعظون ويؤيدون الكاثوليك ويرشدون المنفصلين الى حضن الكنيسة

والغرض من هذه النبذة التاريخية نشر اخبار فردٍ منهم قد تناسى ذكرَهُ غيرُ ابناء رهبانيته مع انهُ كان طائر الصيت خطير القدر في لبنان حيث قضى نيفاً وخمس وعشرين سنة في اعمال لها كبيرُ شان. وعسى هذه المقالة ان تنشط انصار العلم الى التنقيب في سجلات هذه الرهبانية او في المكاتب الشرقية فتصرّح الحقيقة عن محضها وتتجلى لنا بصورة الطيّب الذكر غريفون احد المرسلين الفرنسيسيين في لبنان بعد منتصف القرن الخامس عشر وبودّنا لو يحيا بين الموارنة ذكر هذا الرجل الذي كان لهم صديقاً حميماً

١

هو فرا غريفون ولم نجد لهُ اسماً آخر يُعرَف بهِ. ومسقط راسه ولاية الفلمنك في بلجيكا. فالمؤرخون يدعونهُ تارةً بالبلجيكي وتارة بالفلمنكي او الفلندري(١ وروى احد الفرنسيسكان(٢ انهُ من المانيا السفلى (٣ وروايته لا يصعب فهمها اذا اعتبرنا ان اكثر الولايات البلجيكية كانت وقتئذٍ تابعة للدولة الالمانية فلذا سميت زمناً مديداً بالمانيا السفلى. وقد ألحق الاب ارتوروس في كتابهِ « اخبار القديسين الفرنسيسكان » اسم غريفون بهذه العبارة المستغربة « كان فرنسي الجنس فلمنكي الوطن » (٤ وما التناقض الا في ظاهر العبارة فان المؤرخ

(١ « de Flandria » (٢ Nicolas Glassberger

(٣ « Theutonicus ex partibus inferioribus »

(٤ « Gallus natione, patria Flander »

الفرنسيسكاني لا ريب يلمع الى علاقة السيادة التي كانت لم تزل حتى القرن الخامس عشر للملوك فرنسا على امارة القلمنك (١

لم نجد في اخبار الفرنسيسكان الّا شيئاً زهيداً عن حياة هذا الرجل العظيم قبل مجيئهِ مرسلاً الى لبنان . ولذا يتعذر علينا ان نحدّد بالتدقيق سنة مولده . فبعد المقابلة بين روايات المؤرخين رأينا القول انهُ ولد في العشر السنين الاولى للقرن الخامس عشر . ولبس ثوب الرهبان الفرنسيسكان عند الديريّين (Conventuels) (٢ ولا نعلم ايضاً في اي سنة . وما بلغ الثانية والعشرين من عمره الّا حاز في باريس رتبة علّامة في اللاهوت . وقضى سبعة اعوام يدرّس هذا العلم في الكلية فنال فوزاً عظيماً راعهُ في اتضاعه . فلكي يتخلص من مدائح البشر هجر كلية باريس ورحلهُ وزار معابد رومة في ايتاليا واسيز (٣ ثم طلب الدخول في مصاف الاصغرين المحافظين (Mineurs Observantins) ليعيش ما بينهم خامل الذكر بعيداً من حركة العالم

فهناك وافق كل شيء عواطف اتضاعه فاخوانه الفرنسيسكان انفسهم قضوا اعواماً طوالاً لا يدرون بكنز العلم بينهم . فيوماً ما كان الاخ غريفون من جملة المدعوين لحضور مناظرة في اللاهوت علنية في مدينة مَنْتُوا ولما رأى ان المنتصر للحق كاد يلحقهُ الفشل لم يتمالك ان خاض في الكلام ببلاغة خلبت لبّ السامعين وجعلتهم يقدّرون هذا الغريب قدره

امّا رؤساؤهُ فلمّا كشفت لهم المناظرة النقاب عن فضلهِ وطول باعهِ طلبوا منهُ ان يضحي امياله الشخصية ويقبل وظيفة مدرّس الكتاب المقدس . فقام مدّة بهذا الواجب احسن قيام . على انهُ لم يكن ذلك غايته من سفره الى ايطاليا . فابناء القديس فرنسيس ما زالوا يتوقون الى رسالات الاراضي المقدسة ليس فقط لما فيها من الآثار المسيحية العظيمة والذكرى المجيدة بل ايضاً لانها تقتضي تعباً وكداً وتفانياً ولذا بات غريفون يميل كل الميل الى اخبار فلسطين وتحنّ نفسهُ الى الاشتراك مع اخوته في اتعابهم واكدارهم

وفي ذلك الزمن لم يكن من حديث في جميع انحاء ايطاليا الّا مسألة اتحاد الشرقيين بالكنيسة الرومانية . ففي ٢٢ تشرين الثاني سنة ١٤٣٩ قابل البابا اوجانوس الرابع وفد

(١) وقد انقطعت هذه العلاقة في اواخر القرن الخامس عشر

(٢) فرع من رهبانية الفرنسيسكان خفّفوا شيئاً من قانون مار فرنسيس

(٣) مدينة مار فرنسيس مؤسس الرهبانية

الارمن الذين جاؤوا يحاقون يمين الطاعة لكرسي الرسولي وكان قد سبق اتحاد الروم في المجمع الفلورنتيني. فقبل ختام المجمع وصل الاخ يوحنا رئيس الفرنسيسكان في بيروت وقد اوفده غبطة يوحنا الجاجي بطريرك الموارنة لكي يهدي واجب احترامه لنائب المسيح ويعرض له ان رأس الطائفة المارونية يوقع سلفاً على كل قرارات المجمع ولكي يطلب اليه منح الدرع المقدس وتثبيته على كرسي بطريركية انطاكية. اما موارنة القدس فارسلوا الاخ ألبر من الرهبانية الفرنسيسكانية لينوب عنهم في المجمع (١

وفي عام ١٤٤٣ ارتدّ اليعاقبة وللفرنسيسكان اليد الطولى في هدايتهم. وفي الاعوام التالية اعترف برئاسة روما اسطفان ملك البشناق وكذلك الكلدان. وفي السابع من آب ١٤٤٥ اصدر البابا ارجانوس الرابع منشوراً عاماً فيه اسدى الى الله عظيم الشكر على هذه النعم الجليلة (٢ فكانت اذن مسألة ارتداد الكنائس الشرقية حديثاً شاغلاً اكثر منه في ايامنا. ولا يخفى ان الفرنسيسكان نظراً لرسالتهم في الشرق كانوا اشدّ اهتماماً بذلك من كل من سواهم. فما لبث غريفون ان نال غاية مشتهاه اذ اتاح له الزمان ان يكون من المرسلين فيبتعد عن مدائح العالم وينتقل الى فلسطين ليبذل نفسه في خدمة الدين وارشاد المنفصلين

٢

في اواخر ١٤٤٢ او اوائل العام التالي وصل الاخ غريفون الى فلسطين فشرع في زيارة معابدها التي وصفها في كتابه « زيارة الاراضي المقدسة (٣ » وبعد قضاء هذه الفروض جاء اورشليم ليقيم بها في دير جبل صهيون فوجد فيه بصفة رئيس دير ومحافظ الاراضي المقدسة الاب غانضولف من صقلية. وما لبث هذا ان قام مكانه الاب بلتازار دي سانتا ماريا دلّا ماركا وبقي في تلك الوظيفة من ١٤٤٦ الى ١٤٥٥

وكان معظم نفقة الدير من الاحسانات الواردة من اسياد الاخ غريفون اعني بهم امراء بورغونديا العظام المالكين وتتنذ على بلجيكا. فهؤلاء الامراء اشتهروا

---

١) الدويهي تاريخ الموارنة الصفحة ١٣٥ ٢) هذا الامل لم تطل مدته في رومة فمنذ بداءة عهد البابا نقولا الخامس (١٤٤٧ – ١٤٥٧) لم تكن الدائرة البابوية تجهل امبال الروم (Cfr. Pastor; *Geschichte der Päpste* 1 447 — 449.)

(٣) Itinerarium Terræ Sanctæ

في كل حين بحثهم على الاراضي المقدسة وقد بنوا في الرملة تزل الضيافة للزوار وشيّدوا كنيسة بيت لحم

ولم تكن هذه بالآثار الوحيدة التي تذكرهُ بالوطن العزيز فان الزوّار البلجيكيين كانوا يتواردون كلّ عام افواجًا وفي القرنين الخامس عشر والسادس عشر كان عددهم يربي على غيرهم من سائر الممالك الاوربية حتى جرى في بلجيكا مجرى المثل قولهم « سافر الى يافا » عبارة عن السفر المحفوف بالمصاعب والمتاعب(١ ولطالما بذل غريفون في سبيلهم ما عنده من الغيرة والخبرة بالاراضي المقدسة وكم سار معهم دليلًا في تلك الاماكن ولاسيما الى نواحي الاردن . ولا ريب انهُ كان في اورشليم لمّا ان جاءها في اواخر الصيف عام ١٤٥٠ الدوق جان دوكلاف الذي كان غادر بروكسل في السابع نيسان من السنة عينها وبمعيتهِ جمٌّ غفير من اعيان الفلمنك

وكان الفرنسيسكان ما عدا قيامهم بحسن الضيافة نحو الزوّار يهتمّون بشؤون رعية قليلة جمعت بين بعض التجار من جنوة والبندقية وعددٍ من الاهالي الثابتين في الدين الكاثوليكي من عهد الدولة اللاتينية بالقدس او المرتدين الى الوحدة الجامعة بساعي هؤلاء المرسلين ذوي الغيرة والشهامة وقد شهد لهم احد الزوّار عام ١٤٨٣ بقوله « في اورشليم عددٌ قليل من اللاتين امتازوا بحسن سيرتهم حتى اصبحوا انوارًا يقتبس منها وهم خاضعون لكنيسة المقدسة الرومانية امّ الخضوع (٢ »

وكان ايضًا في اورشليم كما يتضح ذلك لمن طالع الدويهي جماعة من الموارنة بينهم وبين الفرنسيسكان علاقة شديدة . ويتعذر علينا ان نحكم بوجهٍ قطعيّ جازمين بانهُ كان يقوم بادارة شؤونهم كهنة من نفس طائفتهم او انهُ كان موكولًا امرهم الى ابناء دير فرنسيس على اننا نرجح الرأي الاول . واحد الزوّار الالمان في ذلك الحين يتكلم عن موارنة مقيمين في كنيسة القيامة(٣ فيُستدلّ من ذلك على وجود كهنة موارنة في اورشليم .

وما وصل غريفون الى القدس الّا راى الاجتماع الذي عقدهُ فيها بطريرك المشاتين الاورشليمي بمعاونة رصيفيه الانطاكي والاسكندري . والذي فيهِ حرموا الجمع الفلورنتيني

(١) L. Conrady, *Rheinische Palestina. — Pilgerschriften*, p. 186 — Reland. *Palæstina*, p. 865. (٢) Bernard de Breydenbach.

(٣) Röhricht, p. 92.

وقادوا بجلع متروفانوس البطريرك القسطنطيني لانهُ وافق على الاتحاد بالكنيسة الرومانية. فساءهُ هذا المشهد لكنهُ لم يخمد شيئاً من نار غيرته

ولما كان اوّل مساعي المرسل ان يتعلم لغة البلاد التي يحلّ فيها تبادر الى ذهن غريفون بادئ بدء ان يدرس العربية وزاد عليها السريانية وهي وقتئذٍ اللغة الطقسية عند اكثر الطوائف الشرقية كالموارنة واليعاقبة والنساطرة والروم الملكيين ايضاً

ويظهر جلياً من درسه اليونانية قبلاً رغبته في ان يتمكن من العناية بشان الاجزاء المختلفة التي تتألف منها الارثوذكسية اليونانية فبعد ان قضى زمناً طويلاً يدرّس في كلية باريس لم يصرف اقلّ من سبعة اعوام في الاستعداد لتلك المهمّة. وكان بعد مضيّ هذه المدة ان عدّهُ رؤساؤهُ اهلاً لرسالات الشرق

٣

في النصف الاول من القرن الخامس عشر كان الفرنسيسكاني الشهير انطون دي طرويه (١ طاف مرّةً بعد مرة في الشرق قياماً بما كأنهُ البابوات من المهمات الخطيرة لدى نصارى الشرق ولا سيما اهالي جبل لبنان

وفي سنة ١٤٤٤ كان قد عاد الى رومة يصحبهُ وفد من الموارنة. فرحّب بهم الحبر الاعظم وعزم من ثمّ على توسيع نطاق الرسالات في سورية. وفي السنة نفسها ١٤٤٤ عُيّن الفرنسيسكاني بطرس دي فرّارا من دير الخاص في بيروت وكيلاً رسولياً لدى الموارنة والسريان (٢ او الروم الملكيين. وبعد ستة اعوام من ذلك التاريخ أُلحق غريفون بالرسالة الفرنسيسكانية في جبل لبنان. فسافر من اورشليم في خلال سنة ١٤٥٠ يصحبهُ الاخ فرنسيس من بيشارنة الذي اقام مثلهُ اعواماً طوالاً في الشرق وتضلّع في اللغات الشرقية. وكان لهُ رفيقاً لم ينفصل عنهُ حتى الموت. وكانت بيروت في طريقهما وهي مفتاح لبنان ومركز رئيس الرسالة وقتئذٍ. ومن المرجح ان غريفون عند ورودهِ بيروت مكث بها مدةً واكثر من التردّد اليها فيما بعد ولا سيما حينما تقلّد وظيفة نائب الكرسي الرسولي

٤

وفي تلك الايام كانت بيروت مع الاسكندريّة اهمّ الثغور الشرقية على البحر المتوسط

١) الدويعي (١٣٧) دعاهُ « طرريه » والصواب « طرويه » Troia بلدة في مملكة نابولي

٢) في تواريخ القرون المتوسطة اطلق هذا الاسم على الروم الملكيين في سورية

فخراب عكا وصور وطرابلس(١ وسقوط مملكة قيليقية كانا سبب عمرانها وصيرورتها مركز تجارة كل سورية . وكان مرفاها امينًا في غاية المناسبة والمدينة آهلة بعدد من السكان وافر قامت في موقع جميل تحفّ بها المزارع الخصبة واشتهرت بجودة هوائها فجاءها التجار انتجاعًا للعافية واسباب الربح من دمشق وحلب وطرابلس وصور

وكان فيها لاهل قبرس عدد من الكنائس وخانات فسيحة وحمّامات . وكانت بضائع البندقية بقيت زمنًا لا تتمكن من دخول بيروت الّا تحت علَم آل لوزينيان اسياد قبرس (٢ ثم اخذت سفن البندقية وجنوة وفلورنسا وكتالونيا تردها باوقات معلومة . وكان لكلٍ من هذه الجمهوريات صاحبة التجارة فندق مع مستودعات ومخازن واصبح من ثمّ لحكومة البندقية قنصل يمثلها (٣

وكان المماليك الشراكسة الحاضمة لهم بيروت يرهنون عن سداد رأي بتوفير اسباب التجارة وهي ينبوع الخيرات البلاد السورية . وزادوا على ذلك انهم عينوا راتبًا سنويًا لقنصل اوربا . ولمّا استأذن تجار بيروت اللاتين في ترميم كنيسة الخاص(٤ لم تتردد الحكومة عن اجابة سؤلهم

وكان من مجموع تقادم التجار فريضة جعلت على مراكب الاوربيين الواردة للثغر تُنفق في سبيل الكنيسة ويقوم بخدمتها الفرنسيسكان القاطنون في الدير الملاصق لها (٥ وكان هؤلاء الرهبان يقومون ايضًا بضيافة الزوّار الوافدين بتواتر الى هذه المدينة في ذهابهم الى الاراضي المقدسة وفي ايابهم . والذين منهم يؤمّون دمشق لزيارة آثار مار بولس وصورة العذراء في صيدنايا وليس منهم من يغادر بيروت قبل ان يتفقد المكان الذي فيه قتل القديس جرجس التنين قرب النهر (٦

---

١) راجع ابن بطوطه I ١٢٩ و١٣٠ و١٣٢ الخ ; Röhricht 119

٢) تاريخ بيروت fol. 17b ٣) راجع ابن بطوطه I ١٣٣ و Heyd تاريخ تجارة الشرق (ترجمة فرنسية) II ٣٣٣ و ٤٢٣ و ٤٥٦ و ٤٥٩ و ٤٦٠ و ٤٨٧ الخ

٤) كانت مشيدة على اثار البيت الذي حدثت فيه العجوبة الصليب المعروفة (مروج الاخبار ٩ تشرين الثاني)

٥) في ١٤٧٣ كان في الدير ستة من الرهبان Röhricht 104 — وورد في رواية فلمنكية في القرن الخامس عشر انهُ كان « دير جميل كدير اورشليم Conrady 163

٦) Conrady 162 etc. ; Röhricht 103, 447, 69, 41, 522

وكانت بيروت في تلك الاعوام كما هي في عصرنا قبلة الشعوب الشرقية تختال في ميناها السفن العديدة والمراكب الحربية تحت حماية ابراج عظيمة قامت على الرصيف من الحجر الاصمّ (١ وفي اسواقها الضيّقة وطرقها الملتوية تزدحم الاقدام فمن اصحاب العمائم او الكفاف الحريرية ومن لابسي البرانس البيض او المضرّبات ومن مدجّج بالاسلحة المتزّل فيها من الذهب والفضة والنحاس اشكال النقوش وكم من تاجر غنيّ وامير خطير يعثر بحمّال وفقير. فيها التقت جميع الامم واللغات وتعارضت الالوان والاصوات من زنجيّ السودان الى الشركسي الابيض ومن الروميّ الغرق الى البدويّ الذي لا تهزّهُ ريح. ومن اليهوديّ المتلوّي الى الاسباني المتغطرس وقد اختلط بهم تجار البندقية وجنوة وبيزة. وعلى آثار هؤلاء مشى اهل كاستلونيا وبروفانس انتجاعاً لارباح التجارة في الشرق. ولا يمضي قرن بعد ذلك الّا تعترض مرسيليا في سبيل البندقية لتنازعها سيادة التجارة في البحر المتوسط

امّا غريفون فانهُ ما لبث ان تخلّى لاخوانهِ بدير المخلّص عن امر العناية ليهتمّ بنشره التعاليم المسيحية بين سكان بيروت المختلفي الاجناس وسلك مع رفيقه الاخ فرنسيس البرشلونيّ طريق لبنان (ستأتي البقية)

وزن قديم لمدينة بيروت

للدكتور جرل روفيه احد اساتذة مكتبنا الطبّي (٢

قد حصلتُ مؤخرًا على وزن قديم من رصاص وجد في جوار بيروت فاوردعتهُ في جملة ما اقتنيتهُ من الآثار القديمة. فهذا الوزن قد بقي رغماً عن قدمه على احسن هيئة لم تطمس الأيام رسمهُ

فشكلهُ مربّع كما يأتي لكل جانبٍ منهُ ٤١ ملمترًا. وثقلهُ ٥٥ غراماً و٨٠ سنتغراماً وسمكهُ ٤ ملمترات. وفي وجههِ الاعلى تقوير مربّع ذو اطار جميل على جوانبه

(١ ان بناء المرفأ الحديد ذهب ببقيّة آثار الرصيف وحصون بيروت القديمة

(٢ قد نُشرت هذه المقالة مؤخرًا في اصلها الفرنسي بمجلّة المسكوكات. فاحببنا ترجمتها للعربية لمنفعة اهل بلادنا (ل ش)